وكما هو معروف، فإن بريطانيا وفرنسا هما الدولتان اللتان سعتا الى فرض استعمارهما، وتثبيت نفوذهما في منطقة بلاد الشام، وذلك بهدف تأمين مصالحهما الحيوية في هذه المنطقة وحولها، بالاضافة الى روسيا القيصرية التي لعبت دوراً ثانوياً في هذه المسألة.

وفيما يتعلق بفلسطين، فإن الاهتمام البريطاني بها كان ذا شقين، كما يشرح سخنيني، هما:

١ ـ كونها محاذية لقناة السويس.

٢ ـ لانها جزء من الطريق الرئيس الى الشرق حيث المستعمرات البريطانية في الهند، مروراً بمصالحها في العراق والخليج العربي وايران. وكان ظهورها الأساسي، في هذا الصدد، يتمحور حول إقامة خط حديد بين حيفا وبغداد.

أما فرنسا التي خسرت قناة السويس العام ١٨٧٥، فقد حاولت تعويض خسارتها بالاهتمام بساحل البحر المتوسط الشرقي، وسوريا تحديداً باعتبارها الطريق البري الى المحيط الهندي، وكذلك لتأمين سيطرتها على البحر المتوسط وشواطئه الشرقية، امتداداً لدورها كدولة بحرية متوسطية.

هذه المصالح وجدت تجسيداً لها في تقسيم المنطقة بين الدولتين، من خلال اتفاقية سايكس ـ بيكو التي يعتبرها سخنيني «المحدد الزمني الأول للاتجاه الاستعماري الهادف الى خلق كيانات سياسية عربية، منفصل بعضها عن بعض، وهي التي رسمت، بوحي منها، المعالم الجغرافية الرئيسة لهذه الكيانات التي انبثقت بعد الحرب» (ص ٣٣). وبموجب هذه الاتفاقية أصبح وضع فلسطين كالتالي:

١ ـ المنطقة من رأس الناقورة الى شمال عكا (وتشمل صفد) ضمن النفوذ الفرنسي.

٢ ـ المنطقة جنوب الخليل وغزة الى ايلات ضمن النفوذ البريطاني، مضاف اليها مدينتا عكا وحيفا.

٣ ـ المنطقة من جنوب صفد الى جنوب الخليل وغزة مخصصة لادارة دولية.

وهكذا، ضمنت بريطانيا مصالحها بسيطرتها على ارض تصل بين قناة السويس والخليج العربي عبر جنوب فلسطين والاردن والعراق. وأمنت فرنسا مصالحها في الشواطئ الشرقية للمتوسط عبر السيطرة على سوريا ولبنان وشمال فلسطين، وبقي الجزء الأكبر من فلسطين الجغرافية متنازعاً عليه، فاصطلح في سايكس ـ بيكو على تسميته بـ«المنطقة البنية المقرر ان تنشأ فيها إدارة دولية».

وإذا كان ميزان القوى عند توقيع الاتفاقية قد فرض هذه التقسيمات، فإن استمرار الصراع أدى الى تجاوزها، لا سيما وأن الهدف البريطاني الأصلي كان يتضمن السيطرة على فلسطين كلها. وانطلاقاً من هذه النقطة يتتبع المؤلف التفاصيل الدقيقة للصراع الذي أسفر عن بلورة الحدود المعروفة الآن لفلسطين.

وبموازاة مراحل تبلور حدود الاقليم الفلسطيني كانت تسير مراحل تبلور ما يسميه سخنيني بـ«التمايز الوطني الفلسطيني»، متأثرة بالعاملين المذكورين في مقدمة الكتاب واللذين أشرنا اليهما في بداية عرضنا هذا.

فالوضع لم يقف عند تقسيم الدول الاستعمارية للمنطقة، بل تعداه الى بدء نشاط واسع للهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي، وهذان الأمران «طرحا أمام الفلسطينيين مهمات متميزة عن مهمات الحركة العربية السياسية التي كانت تتفاعل آنذاك. فالتحدي موجه لهم بالتحديد، وهم المخاطبون مباشرة» (ص ٧٦).

وحول الصلة بين الخطر الصهيوني الماثل وظهور الشعور بالهوية الفلسطينية، يقول المؤلف «لم يكن هذا الشعور مخلوقاً من عدم، وانما كانت مكوناته الاساسية معطيات التاريخ العربي الذي احتفظ باسم فلسطين، وأورثه لاجيال متعاقبة، إرثاً عربياً خالصاً. وكانت وظيفة الخطر الصهيوني، في هذا المجال، هي أنه استحث ظهور هذا الارث، وخلق مبررات بعثه، وأوجد حوافز مادية شخصية، من خلال عملية التحدي، لمواجهة هذا الخطر بحادة للخطر نفسه، تعني 'الفلسطينية' وإن كانت بمفهوم مناقض لمفهوم الصهيونية عنها» (ص ٧٧).

ويتتبع سخنيني، في ما تبقى من الكتاب، المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية منذ اصرار